الباب السابع

فى ظهور ملوك آل عثمان
خلد الله تعالى سلطنتهم القائمة إلى آخر الزمان
وذكر نبذة من مناقب أسلافهم السلاطين العظام
وذكر ما عمّروه فى بلد الله الحرام، وفعلوا فيه من الخيرات الحسان
وذكر بناء المسجد الحرام على الوضع الذى هو عليه الآن

وفيه فصول:

الفصل الأول

فى ذكر الفتح الخاقانى، ودخول ممالك العرب والعجم
فى سلك الملك العثمانى، ونبذة من ذكر أسلافهم الكبار،
بطريق الاختصار، خلد الله ملكهم مَدَى الزمان،
وأبقى مُلك الأرض فيهم وفى عقبهم إلى انتهاء الدَّوَران

لمّا أراد الله تعالى بأهل الأرض إحسانًا وإفضالاً، وقدّر ظهور العدل والفضل فيهم إكرامًا لهم وإجلالاً، وقضى بإطفاء نيران الظُّلْم والفتن، ورفع موادّ الفساد والمحن، وتأييد دين الإسلام، وتقوية أهل السُّنَّة السنية المتمسّكين بسُنَن سَنَن محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام، وإقامة الشرع الشريف على رغم الملاحدة اللئام، أطلع فى أفق الخلافة العظمى شموس الإيالة العثمانية، وأسطع من أوجه سماء السلطنة الكبرى بُدُور كمال المعدلة الخاقانية، وأجلس على سرير الملك من ملّكه الله أعظم ممالك الإسلام، وفتح على يَديه أكبر الأمصار والبلاد بالسيف الصارم الصمصام، والحسام الحاسم مَوَاد الظُّلْم من

كلّ ظالم وظلام، ونشر به جناح الأمن والأمان على أهل الإيمان من الأنام، فأخذ أحسن محاسن ممالك هذا الربع المسكون، وكان مُظْهِراً لقول من يقول للشيء كن فيكون. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الانبياء:١٠٥]، واستولى بتأييد الله ونصره، على شام البلاد ومِصْرِه، وملأ نطع الدنيا بدماء سيف قهره، كما ملأها بإفاضة سيل عدله وسَيْب لطفه وبرّه، وتشرّفت بذكره فى الحرمَيْن الشريفين صدور المنابر، ورءوس المنائر، وعمر مساجدهما وتلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة:١٨]، وأقام الملّة الحنيفية وأحيا ما لها من مآثر، الملك المالك الهُمام، الليث الباسل الضرغام، السلطان الأعظم، والخاقان الأكرم الأفخم، خير خلف خلفاء الرحمن، أشرف سلف سلاطين آل عثمان، السلطان سليم خان، ابن السلطان بايزيد خان ثم ابن السلطان محمّد خان، ابن السلطان مُراد خان، ابن السلطان محمد خان، ابن السلطان يلدرم بايزيد خان، ابن السلطان مراد خان الغازى، ابن السلطان أورخان، ابن السلطان عثمان الغازى تغمّدهم الله تعالى بالرحمة والرضوان، وحفّهم بروائح الروح والريحان، وأبدلهم عمّا انتقلوا عنه من الملك الفانى بالملك الباقى فى أعلى غرف الجنان، وأبقى السلطنة فى عقبهم خالدة تالدة إلى يوم الحشر والميزان:

هم معشر كلُّهم غارٍ وكلُّهم ... خير الملوك صناديد الصناديدِ

أولئك الناس إن عدّوا وإن ذكروا ... ومن سواهم فلَغْوٌ غير معدودِ

لو خلد الدهر ذا عزّ لعزّته ... كانوا أحق بتعمير وتخليدِ

وجَدُّه الأعلى السلطان عثمان الغازى رحمه الله تعالى أصله من التراكمة الرَّحَّالة النَّزَّالة من طائفة التتار، والسلطان عثمان أول من ولى منهم السلطنة فى بلاد الروم فى سنة تسع وتسعين وستمائة وهو ابن أرطغرل بن سليمان شاه، ويتّصل نسبه إلى يافث بن نوح عليه السلام، وهو الجدُّ الأربعون لحضرة السلطان سليم خان بن بايزيد خان رحمهم الله تعالى، ولمّا كانت أسماؤهم بلُغة الترك القديم لم نذكرها لعُسْر ضبطها وهى مذكورة فى

التواريخ التركية.

وكان سليمان شاه سلطانًا فى الشرق فى بلاد ماهان قُرب بَلْخ فلمّا ظهر جنكيز خان أخرب بلاد بلخ وأخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه وتفرّقت أهل تلك الممالك وخرج سليمان شاه من بلد ماهان بخمسين ألف بيت من التركمان إلى أرض الروم، ومرّ بحَلَب وعبر بحر الفرات، فغرق بفرسه فى الفرات، وأخرج منه إلى بحر الرحمة فى أعلى الجنّات، ودفن أمام قلعة جَعْبَر، وتفرّق ومن معه من التركمان، فى أطراف تلك البلدان، وذراريهم موجودون رحّالون نزّالون إلى الآن[١].

وكان لسليمان شاه أربعة أولاد عاد اثنان منهم إلى بلاد العجم، وهما سُنْقر ودُنْدار، وتوجّه إلى بلاد الروم اثنان، وهما أرطغرل وكون دغدى، وقدما على السلطان علاء الدين السلجوقى، وكان سلطان بلاد قرمان وتخت ملكه قونية فأكرمهما وأذن لهما فى الإقامة فى أرضه، فاستأذنا منه فى جهاد الكُفّار، واجتمع عليهما من التراكمة طائفة من الغُزاة وصار دأبهم الجهاد فى سبيل الله[٢].

وكان مقرّهم بين حصار وبلجك فى محلّ يقال له سُكوتجك، صيّروه قشلاقهم، وجبل إيلاتيج جعلوه ييلاقهم، فسكنوهما مع مواصلة الغزو والجهاد، وقَمْع الكفرة حول تلك البلاد، إلى أن توفى أرطغرل فى سنة تسع وثمانين وستمائة[٣].

وخلف أولادًا أنجادًا نجبًا أمجادًا أشدُّهم بأسًا، وأقواهم جأشًا وأنماهم غراسًا، السلطان عثمان وكان مولده فى سنة تسع وخمسين وستمائة دأب فى خدمة والده فى الجهاد، وتفرّس فى الغزاة فى سبيل الله منذ نشأ مع الأولاد، واستمرّ بعد والده مع الكفار فى القتل والجلاد.

(١) المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ص١٠ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص١٣.

(٣) المصدر السابق ص١٤ ـ ١٥.

فرأى السلطان علاء الدين جدَّه وجهده فى الجهاد، وعلم قابليته ونجابته فى فتح أطراف تلك البلاد، فأكرمه وأعزّه وأمدّه بأنواع الإعانة والإمداد، وأرسل إليه الراية السلطانية والطبل والزمر ووسمه باسم السلطنة تقوية ليده، وشدًا لعضده، فلمّا وصل الطبل والزمر إليه عملوا نوبةً بين يَدَيْه، فعند أول سماعه لصوت الطبل والزمر قام على قدمَيْه، تعظيمًا لذلك فصار ذلك قانونًا لآل عثمان، باقيًا مستمرًا إلى الآن، فإنهم يقومون على أقدامهم، عند ضرب النوبة على أبوابهم[1].

وكان السلطان عثمان الغازى على تخت السلطنة فى سنة تسع وتسعين وستمائة وافتتح فيها قره حصار من الكفار، وأمر بصلاة الجمعة وخطب باسمه فقيه كان من أهل العلم اسمه طورسن فقيه، ثم افتتح بعد قره حصار كوپرى حصار، ثم قلعة بلجك، ثم قلعة اين أوكى، ثم قلعة يوند حصار، ثم قلعة اينه كول، ثم قلعة يكى شهر، ثم زوّج ولده أُورخان على نيلوفر خاتون بنت تكور صاحب يار حصار، فعمل أبوها سماطًا عظيمًا، فلمّا حضره الغُزاة انتهزوا الفُرصة وقتلوا تكور وافتتحوا قلعة يار حصار فدخلها السلطان عثمان وصارت من جُملة مملكته[2]، واستمرّ فى الغزو والجهاد، وافتتاح البلاد، وقتل الكفار أهل العناد، إلى أن دعاه الله تعالى إلى جنّته وأبدله سلطنة خيراً من سلطنته، فأجاب داعى الحق لما دعاه، وبادر إلى إجابته ولَبَّى نداه، فعاش سعيدًا، ومات حميدًا، إلى رحمة الله تعالى عن ستٍّ وستّين عامًا فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وكانت مدّة سلطنته ستًا وعشرين سنة، وكان للسيف وللضيف كثير الإطعام، فاتك الحسام، كثير البذل واسع العطاء شجاعًا مقدامًا على الأعداء، ما خلف نقدًا ولا متاعًا، إلا سيفًا ودرعًا، يجاهد بهما الكُفَّار وبعض خيل وقطيعًا من الغنم اتّخذها للضيفان، وأنسالها باقية إلى الآن، ترعى حول بلاد بُروسَا، أبقوها تَيَمُّنًا وتَبَرُّكًا.

(١) نفس المصدر ص١٦.

(٢) المنح الرحمانية ص١٧ ـ ١٨.

ثم ولى بعده السلطان أورخان الغازى[١]، مولده فى سنة ثمان وسبعين وستمائة، وجلوسه على تخت السلطنة بعد والده المرحوم فى سنة ست وعشرين وسبعمائة، ومدة سلطنته خمس وثلاثون سنة، وعمّر ثلاثًا وثمانين سنة، وهو الذى افتتح برُوسَا وجعلها مقرَّ سلطنته وفتح قلاعًا كثيرة، وله حروب مع الكفار مشهورة يسمّى نيلوفر صوى.

وكان السلطان أورخان فاق والده فى الجهاد، وفتح البلاد وبذل الاجتهاد، ففتح بروسا فى أيام والده، ثم قيون حصار، وقلعة إزنيق فى سنة ست وعشرين وسبعمائة ثم فتح قلعة كونيك وقلعة بالى كِسْرى وولاية قره سى وقلعة كرماستى وقلعة أولوباذ فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وقلعة قزلجة طورله فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة. وفتح عدّة قلاع وحصون فاتّسعت مملكته ونفذت كلمته، واجتمعت ملوك النصارى وجميع الكفرة على قتال العساكر الإسلامية ودفع ضرر المسلمين عن بلادهم، فاتفق قرال إنكروس يعنى سلطانهم وسلطان لان والسَّرف وأجمعوا أن يتعدّوا من بلاد روميلى إلى جهة أناطولى ويقاتلوا السلطان أُورخان فى محلّه، وكان له ولد نجيب اسمه سليمان بك استأذن من والده أن يعدّى إلى روميلى ويقاتل الكفار الذين اجتمعوا لقتاله قبل أن يَصِلوا إلى أناطولى، فأجازه والده لما رأى نجابته وشجاعته فتوجّه مع خُدَّامه فسمع به الغُزاة فتبعه من الشجعان فوارس مخبورون، وأبطال مشهورون، فعدّوا إلى روميلى فصادفوا الكفار فى غفلة وهم يريدون العبور إلى جهة أناطولى فوقع حرب عظيم قُتل فيه من الكفار ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، وانهزم الباقون فى القلاع والحصون، وتبعهم المسلمون يأسرون منهم ويقتلون[٢]، فنصر الله الإسلام، وخذل النصارى اللئام، وافتتح المسلمون عدّة قلاع وحصون وآل الكفار إلى الدمار والبوار، ثم إلى عذاب النار، ورجع سليمان بك إلى والده مظفرًا منصورًا، مؤيّدًا مسرورًا.

(١) انظر فى سلطنة أورخان الغازى: المنح الرحمانية ص١٩، وتاريخ سلاطين بنى عثمان ص٣٣.
(٢) المنح الرحمانية ص١٩ وما بعدها.

وكان السلطان أورخان كوالده كثير الجهاد، طاهر الاعتقاد، سليم الفؤاد، عَدُوّاً لأهل الكفر والإلحاد، عاش سعيدًا، ومات حميدًا فى سنة إحدى وستين وسبعمائة، ثم ولى بعده ولده السلطان مراد الغازى[١] مولده سنة سبع وعشرين وستمائة وجلوسه على التَّخْت فى بروسا سنة إحدى وستين وسبعمائة، ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة، وعمر خمسًا وستين سنة وولى السلطنة وعمره أربع وثلاثون سنة، وافتتح كثيرًا من البلاد منها أدرنة فى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وهو أول من اتّخذ المماليك وسمّاهم يكيچرى يعنى العسكر الجديد، وألبسهم اللُّبَّاد الأبيض المثنى إلى خلف وسمّاه بُرْكًا بضمّ الباء الموحدة وسكون الراء آخره كاف، وكانت له صولة عظيمة على الكفار واجتمعت النصارى على سلطانهم أُسْبُوت فقاتلهم السلطان مراد قتالاً عظيمًا، فقُتل سلطان الكفرة وانهزم الكفار، فأظهر واحد من ملوكهم الإطاعة اسمه يلواش وتقدّم ليُقَبّل يد السلطان مراد فلمّا قرب منه أخرج خنجرًا كان أَعَدَّه فى كمّه فضرب به السلطان مراد فاستشهد إلى رحمة الله تعالى فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، فصار القانون العثمانى من يومئذ أن لا يدخل على السلطان أيلچى أو غيره بسلاح وأن يفتش ثيابه وأن يدخل على السلطان بين رجلين يكتنفانه[٢].

فولى السلطنة بعده ولده السّعيد السلطان يلدرم بايزيد خان[٣]، مولده سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وولى السلطنة وعمره اثنان وأربعون عامًا، ومدّة سلطنته ثلاثة عشر عامًا، ولمّا تولى[٤] استولى على كثير من قلاع النصارى وبلادهم وأراضيهم وصارت النصارى تنتهى إلى بعض ملوك الطوائف فى بلاد الروم، فلزم أن يستولى السلطان يلدرم بايزيد خان على ملوك الطوائف، وضيّق على جماعة منهم مثل ابن كرمان، أخذه وحبسه مع أحد وزرائه،

(١) تاريخ سلاطين بنى عثمان ص٣٥.
(٢) المنح الرحمانية ص٢٢ ـ ٢٣.
(٣) المنح الرحمانية ص٢٥.
(٤) تولى: سقطت من «ل».

فهرب مع وزيره من الحبس ومضى إلى تيمورلنك وهرب أيضًا والى منتشى منه وحلق لحيته وحواجبه وصار فى صورة قَلَنْدَرى[١]، وذهب إلى تيمور وكذلك ابن أيدين هرب فى صورة سقطى[٢] بَيَّاع الخرزات، وكذلك ابن اسفنديار وغيرهم من أمراء تلك الديار وملوكها وَصَلوا إلى تيمورلنك وشكوا من السلطان بايزيد وحسّنوا له أن يصل إلى بلاد الروم، فوصل إلى البلاد الشامية والحلبية وقتل فيها وفتك وسفك الدماء وعاث فيها وأخذ تلك البلاد وأسر أهلها ونهب المسلمين.

وشرح ما فعله فى بلاد الإسلام يطول جدًا، وذلك مذكور فى تاريخ ابن عربشاه وغيره[٣].

واستمرّ تيمور يفسد فى الأرض ويقتل ويسفك الدماء إلى أن وصل إلى أذربيجان، وخرج السلطان بايزيد إلى قتاله وجميع عسكر الروم، ولما التقى الفئتان قرب أنكورية هرب من عساكره طائفة التتار وعسكر منتشا وعسكر كرميان وتركوا السلطان بايزيد وذهبوا إلى تيمور ووقع الحرب الشديد، وقُتل من أولاد السلطان بايزيد السلطان مُصطفى فشرع عسكره فى الانهزام وثبت هو وقليل ممّن معه واستمرّ يقاتل إلى أن وصل إلى تيمور بسَيْفه المشهور يقاتل بنفسه وقد عجزوا عنه فرموا عليه بساطًا وأمسكوه وحبسوه فحصل له حُمَّى غضبيّة فتوفى إلى رحمة الله تعالى فى سنة خمس وثمانمائة[٤].

وتسلطن بعده أولاده، وهم عيسى وموسى وسليمان وقاسم ومحمد وصار بينهم النزاع والقتال نحو اثنتى عشرة سنة إلى أن استقلّ بالسلطنة السلطان محمد خان[٥] ابن السلطان يلدرم بايزيد خان فى سنة تسع عشرة وثمانمائة،

(١) القلندرية: فرقة من الدراويش، أسسها سيد چلبى البخارى النقشبندى، وتأتى بمعنى الدرويش الذى لا يبالى وينطلق من كل قيد.

(٢) سقطى: بائع السقط.

(٣) المنح الرحمانية ص٢٧، والمراد بمؤلف ابن عربشاه كتابه المسمى: عجائب المقدور فى نوائب تيمور.

(٤) المنح الرحمانية ص٢٦.

(٥) المنح الرحمانية ص٣٠.

ومولده فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة واستقلّ بالسلطنة وعُمره تسع وثلاثون سنة ومدة سلطنته تسع سنين وعاش ثمانية وأربعين عامًا وكان شجاعًا مقدامًا مجاهدًا فى سبيل الله.

افتتح عدّة قلاع وبلاد، وبذل نفسه فى الغزو والجهاد ومهّدها أعظم مهاد، وممّا افتتحه قلعة قسطمونة وقلعة أَسْ كُبْ وقلعة صامسون وقلعة آقشهر وغيرها، وظَهَرَ فى أيامه بدر الدين بن قاضى سماونة وادعى السلطنة وجمع جمعًا من مُريديه، فأرسل السلطان محمد خان عسكرًا لقتاله فقُتل من مريديه نحو من ثلاثة آلاف نفر.

ومُسك بدر الدين بن قاضى سماونة، وكان يُرْمَى بسوء الاعتقاد وله رسائل تشير إلى شىء من ذلك، وقد جمع بين الفصول الأُسْرُوشَنية والفصول العمادية جمعًا ضيّق فيه العبارة وأخفى الإشارة وهو متداول بين العلماء لا يؤخذ إلا بأَصْله، وأما هو فلا يوثق بنقله لما يحكى عنه من انحلال العقيدة إن صحّ ذلك عنه، وله فى الفقه مَتْنٌ سمّاه لطائف الإشارات وشرحه وسمّاه التسهيل، وله فى التصوّف رسالة الواردات، ورسالة مسرّة القلوب، ولما مُسك قُتل بإفتاء مولانا حَيْدَر العجمى فى سنة ثمانى عشرة وثمانمائة، وصُلب وسكنت الفتنة[1].

ثم خرج عليه محمد بن قرمان وأحرق بروسا، فجاء السلطان محمد خان من بلاد روميلى ووصل إلى قونية ووقع بينه وبين محمد بك بن قرمان حرب عظيم مشهور انهزم فيه عسكر ابن قرمان، ومُسك محمد بن قرمان وولده مصطفى وأُتى بهما أسيرَيْن إلى السلطان محمد خان فعاتبهما وعفى عنهما وتصدّق عليهما بمملكتهما[2].

وللسلطان محمد مدارس وعمائر وأفعال خيرات، وهو أول من عمل

(١) المنح الرحمانية ص٣١.

(٢) المنح الرحمانية ص٣١.

الصرّ[١] لأهل الحرمين الشريفين من آل عثمان رحمهم الله[٢]، ولمّا تمّ أجله المسمّى فى أُمّ الكتاب، أراد الله تعالى نقله إلى جنة المآب، ودعاه من ملك الفناء إلى ملك البقاء المستطاب، فعاش سعيداً، ومضى حميداً، وتحوّل من دار البلاء، إلى دار البقاء، وأن إلى ربّك الرُّجْعَى، وكانت وفاته بمرض الإسهال فتكون له مرتبة الشهادة أيضًا وذلك فى سنة خمس وعشرين وثمانمائة رحمه الله تعالى.

ثم ولى بعده السلطان مراد خان الثانى[٣] ابن محمد خان بن يلدرم بايزيد خان كان مولده فى سنة ست وثمانمائة وجلس على تخت السلطنة وعمره ثمانية عشر عامًا ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة، وعمره تسع وأربعون سنة، وكان ملكًا مطاعًا مقدامًا فاتكًا شجاعًا بَذُولاً واسع العطاء عيّن للحرمين الشريفين من خاصّة صدقاته فى كلّ عام ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهبًا، وللشرفاء السادات من خزينته فى كل عام مثل ذلك، فتح الفتوحات، وليّن جموحات الجموعات، ومهّد الممالك، وأمّن المسالك، وأقام الشرع والدين، وأذلّ الكفار والملحدين، وأعزّ الإسلام والمسلمين، ومن جملة ما افتتحه بلاد سمندرة وقلعة مورة وغيرهما. وقاتل قرال إنكروس وهزمه وأسر منهم خلقًا كثيرًا واستمرّ يجاهد الكفار، ويفتح الديار، إلى أن انتشا له ولده السلطان محمد فرأى نجابته، ولمح فى غرّته سعادته، وعرف إقباله وشهامته، فأجلسه على سرير السلطنة واختار لنفسه التقاعد والفراغ فى مغنيسيا بحُسن رضاه.

ولى السلطان محمد بن مراد خان[٤] فى سنة ست وخمسين وثمانمائة مولده فى سنة خمس وثلاثين وثمانمائة. وجلس على التَّخْت وقد استكمل

(١) الصرّ: أموال كان السلطان العثمانى يرسلها إلى أمراء مكة وأشراف الحجاز فى مواسم الحج لإنفاقها على العلماء والفقراء فى الحرمين المكى والمدنى.

(٢) المنح الرحمانية ص٣٢.

(٣) انظر فى سلطنة السلطان مراد: المنح الرحمانية ص٣٢.

(٤) انظر فى سلطنة السلطان محمد بن مراد: المنح الرحمانية ص٣٨.

عشرين سنة، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة، وكان من أعاظم سلاطين آل عثمان وهو الملك الضليل، الفاضل النبيل، العظيم الجليل، أعظم الملوك جهاداً، وأقواهم إقداماً واجتهاداً، وأثبتهم جأشاً وأقواهم فؤاداً، وأكثرهم توكلاً على الله واعتماداً، وهو الذى أسس مُلك بنى عثمان، وقنّن لهم قوانين صارت كالأطواق فى أجياد الزمان، وله مناقب جميلة، ومزايا فاضلة جليلة، وآثار باقية فى صفحات الليالى والأيام، ومآثر لا يمحوها تعاقُب السنين والأعوام، وغزوات كسر بها أصلاب الصُّلبان والأصنام، من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى، وساق إليها السُّفن تجرى رخاءً براً وبحراً، وهجم عليها بجنوده وأبطاله، وأقدم عليها بخيوله ورجاله، وحاصرها خمسين يوماً أشدَّ الحصار، وضيّق على من فيها من الكفار الفجار، وسلّ على أهلها سيف الله المسلول، وتدّرع بدرع الله الحصين المسبول، ودقّ باب النصر والتَّأييد ولَجَّ، ومن قرع بابًا ولَجَّ ولَجَ، وصبر على متن الصبر إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج، ونزلت عليه ملائكة الله القريب الرقيب، بالنصر العزيز من عند الله والفتح القريب.

ففتح إصطنبول فى اليوم الحادى والخمسين من أيام محاصرته وهو يوم الأربعاء العشرون من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وصلّى فى أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهى أيا صوفية وهى قبّة تسامى قباب السماء وتحاكى فى الاستحكام قبب الأهرام، ولا وَهَت ولا وَهَنَتْ كبراً ولا هَرَمًا كأن أبراجها أبراج الأفلاك، ومسامير أبوابها نجوم السماك، مزّق منها جلابيب الصلبان والأصنام، وخلع عليها حُلل مساجد أهل الإسلام، وأبدلها الله تعالى عن الظلمات نوراً، وكساها بنور الإيمان شرفًا وعزاً وحبوراً، لا زالت محلاً للصلاة والعبادة والاعتكاف، مقراً لاستقرار قلوب العلماء والأصفياء والزُّهاد فيها والعُرَّاف، مستقراً لسلاطين آل عثمان أهل المعدلة والإنصاف، أبد الآبدين ودهر الداهرين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وقد أسس المرحوم فى إصطنبول، للعلم أساسًا راسخًا لا يُخْشَى على شمسه الأُفُول، وبنى بها مدارس كالجنان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول، وقنّن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول، وتُرغب فى طلب العلم الشريف وتكسو الطالبين حُلل القبول بعد الخمول، فجزاه الله خيرًا عن الطُّلاَّب، ومنحه بها أجرًا وأكثر ثواب، فإنه جعل لهم أيام الطلب ما يَسُدُّ به فَاقَتَهُم، ويكون به من خمار الفقر إفاقتهم، وجعل لهم بعد ذلك مراتب يترقّون إليها، ويصعدون بالتمكُّن والاعتبار عليها، إلى أن يَصلوا إلى سعادة الدنيا، ويتوسّلوا بها أيضًا إلى سعادة العُقبَى، وأنه رحمه الله تعالى استجلب العلماء الكبار، من أقاصى الديار، وأنعم عليهم، وعطف إحسانه العامّ إليهم، كمولانا علىّ القوشجى والفاضل الطوسى والعالم الكورانى وغيرهم من علماء الإسلام، وفضلاء الأنام، فصارت إصطنبول بهم أُمَّ الدنيا، ومعدن الفخار والعُلْيَا، واجتمع فيها أهل الكمال من كلّ فنّ فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام، وأهل حِرَفِها أدقُّ الفُطناء فى الأنام، وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام.

وللمرحوم المقدس قلادة منن لا تُحْصَى فى أعناق المسلمين، لا سيما العلماء الأكرمين، قلّدها فى أجيادهم فهى باقية إلى يوم الدين، ولو ذُكِرَتْ مناقبه وعدّدت لشحنت بها مجلدات، أسكنه الله تعالى فسيح الجنّات، دائرا على قبره سحائب الرحمة والبركات، وكانت وفاته فى سنة ست وثمانين وثمانمائة.

ثم تولى بعده السلطان بايزيد خان[1] بن السلطان محمد خان الغازى مولده سنة ست وخمسين وثمانمائة، وجلس على تخت السلطنة فى ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة وعمره إذ ذاك ثلاثون عامًا وعمّر اثنين وستّين عامًا، وهو من أعيان السلاطين العظماء، تفرّع من شجرة طيّبة أصلها ثابتٌ وفرعها فى السماء، وتحدّر من سُلالة الملوك الأكابر،

(١) انظر فى سلطنة السلطان بايزيد: المنح الرحمانية ص٥٥.

وورث سرير السلطنة كابرًا عن كابر، وتزينت باسمه رءوس المنائر، وتوشّحت بذكره صدور المنابر، وامتلأَتْ بمدائح أوصافه بطون الصحف والدفاتر، وافتتح الفتوحات، وغزا فى سبيل الله أعظم الغزوات.

فممّا افتتحه قلعة ملوان، وقلعة كوكلك، وقلعة آق كرمان، فى سنة ثمان وثمانين وثمانمائة، وقاتله أخوه السلطان جم فبرز السلطان بايزيد لقتاله وتقاتلا، فانهزم السلطان جم وفرّ إلى مصر وحجّ فى زمن السلطان قايتباى، وعاد، وأكرمه السلطان قايتباى إكرامًا عظيمًا فذهب إلى وَرْسق وجمع طائفة من الغُزاة ونازع أخاه على الملك فقاتله السلطان بايزيد فانكسر السلطان جم ثانيًا، وفرّ إلى بلاد النصارى فى سنة سبع وثمانين وثمانمائة، فأرسل إليه السلطان بايزيد أحد عبيده فى صورة حَلاّق مجهول فلمّا رآه السلطان جم تَأَنَّسَ به وسأله عن صنعته فقال حَلاّق، فاستخدمه وأمره أن يحلق له فحلق له رأسه بموسٍ مسموم وهرب فى الحال وأثر السمُّ فى رأسه وسرى إلى بدنه فمات إلى رحمة الله تعالى[1].

وله أشعار لطيفة بلسان التركىّ.

ومما افتتحه السلطان بايزيد من القلاع العظيمة، والحصون المحكمة القديمة، قلعة متون وقلعة قرون، وغير ذلك من القلاع والحصون.

وظهر فى بلاد العجم فى أيامه شاه إسماعيل بن الشيخ حَيْدَر بن الشيخ جُنَيْد الصَّفَوى فى سنة خمس وتسعمائة وكان له ظهور عجيب، واستيلاء على ملوك العجم يُعَدُّ من الأعاجيب، فتك فى البلاد، وسفك دماء العباد، وأظهر مذهب الرفض والإلحاد، وغيّر اعتقاد أهل العجم إلى الانحلال والفساد، بعد الصلاح والسداد، وأخرب ممالك العجم وأزال من أهلها حُسن الاعتقاد، والله يفعل فى ملكه ما أراد، وتلك الفتنة باقية إلى الآن فى جميع تلك البلاد، وشرح ذلك يحتاج إلى تاريخ مستقل[2]، ولا أعلم أحدًا تعرّض

(١) المنح الرحمانية ص٥٥ وما بعدها.

(٢) المنح الرحمانية ص٥٧.

له من العلماء الأمجاد.

وظهر من أتباع شاه إسماعيل المذكور فى بلاد الروم شخصٌ مُلْحِدٌ زنديق يقال له شيطان قولى، أهْلَكَ الحرث والنسل، وعمّ بالفساد والقتل، وتبعه غزاة لاتُعَدُّ ولا تُحْصَى، وقويت شوكته وعظم به على المسلمين فى ذلك القُطْر الفتنة والبلاء، فأرسل السلطان بايزيد وزيره الأعظم علىّ باشا بعسكر كثير لقتال هذا الباغى، وأمدّه بجيش عظيم لقطع جادرة هذا الطاغى، فاستشهد علىّ باشا فى ذلك القتال، وقدم بأكفان شهادته إلى الله المتعال، وانكسر شيطان قولى المفسد التعيس وعسكره من جنود إبليس، وقُتل مع طائفة من أعوانه الأباليس[1].

وأسكن الله هذه الفتنة بعدما طَمَّت، وكفى الله تعالى شرَّ أولئك الأشرار بعد أن عظمت فتنتُهم وعَمَّت، وذلك فى سنة خمس عشرة وتسعمائة وكان السلطان بايزيد رحمه الله، وجعل الجنّة مثواه، من المجاهدين فى سبيل الله، الذين لا يزالون يقاتلون على الحقّ ظاهرين على من ناوأهم، منصورين على من شقّ عليهم العَصَا وعاداهم، يجاهدون لتكون كلمة الله هى العُلْيَا، وكلمة الذين كفروا السُّفْلَى، فما زال غازيًا فى سبيل الله، مظفّرًا على أعداء الله، إلى أن صارت بيضة الإسلام بسيوفه محمية محفوظة، وحركاته وسكناته بعين عناية الله وإعانته منظورة ملحوظة، فكانت أيامه من أحسن الأيام، وأكثرها أمنًا وراحة وجمع قلب الأنام، وكانت به كلمة الإسلام مجموعة، وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعة، وتولّى الله على يديه إعزاز دينه، وإذلال طواغيت الشرك وشياطينه.

وكان مع ذلك محبًا لفعل الخيرات، مثابرًا على بذل الإنعام والصدقات، محبًا للعلماء والمشايخ والأولياء من أهل الكرامات، بحيث دخل الخلوة وجلس الأربعين[2]، وارتاض مثل الصلحاء السالكين، ودخل معه الخلوة

(١) المصدر السابق ص٥٨.

(٢) ابن أبى السرور موضحًا: «وجلس فيها أربعين يومًا».

والد مولانا أبى السُّعُود أفندى المفتى المفسّر وهو مولانا الشيخ ياوضى محيى الدين أفندى، وبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودار الضيافات، والتكايا والزوايا والخانقاهات، ودار الشفاء للمرضى والحمّامات والجسور، ورتب للمفتى الأعظم ومن فى رتبته من العلماء العظام فى زمنه فى كلّ عام عشرة آلاف عثمانى، ولكل واحد من مدرّسى الثمانية من مدارس والده المرحوم السلطان محمد خان فى كل عام سبعة آلاف عثمانى[١]، ولمدرّسى شرح المفتاح لكل واحد أربعة آلاف عثمانى، ولكل واحد من مدرّسى شرح التجريد ألفى عثمانى، وكذلك رتب لمشايخ الطريق إلى الله ومريديهم وأهل الزوايا لكل واحد على قدر مرتبته واستحقاقه، هذا غير كسوة الصيف من الأصواف ونحوها، وغير كسوة الشتاء من الفِراء والجوخ لكل واحد على قدر مرتبته، فصار ذلك قانونًا جاريًا بعده مستمراً.

وكان يحبُّ أهل الحرمين الشريفين ويحسن إليهم إحسانًا كثيراً، ورتب لهم الصَّرّ فى كل عام.

وكان يجهّز إلى فقراء الحرمين الشريفين فى كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهبًا يصرف نصفها على فقهاء مكة ونصفها على فقهاء المدينة، وكانوا يتّسعون بها ويرتفقون بها ويَدْعون له، وإذا ورد عليه أحد من أهل الحرمين ينعم عليه ويحسن إليه ويرجع من عنده بصلات عظيمة، ومواهب جليلة[٢].

وممّن ورد عليه فى شبابه خطيب مكة المرحوم الشيخ محيى الدين عبد القادر بن عبد الرحمن العراقى، والشيخ شهاب الدين أحمد بن الحسين العُلَيْف[٣] شاعر البطحاء وفاضلها، ونالا منه خيراً كثيراً، وصنّف العُلَيْف باسمه تاريخًا سمّاه الدرّ المنظوم فى مناقب السلطان بايزيد ملك الروم، لا يخلو من فوائد لطيفة، وممّا نظمه الشهاب العُلَيْف فى مدحه رحمه الله تعالى

(١) عثمانى: مفرد جمعه: عثامنة، من أنواع النقود المتداولة فى العهد العثمانى.

(٢) المنح الرحمانية ص٦٥.

(٣) العليف: مصغراً، وهو لقبه.

من قصيدة رائية طنّانة مطلعها:

خذوا من ثنائى موجب الحمد والشكر
ومن درّ لفظى طيّب النظم والنثر[(١)]

ومنها:

فيا راكبًا يسرى على ظهر ضـــامرٍ
إلى الروم يهدى نحوها طيِّبَ النشرِ[(٢)]
لك الخير إن وافيت برُوسا فسِرْ بها
رويـدًا لإصطَنْبـولَ سامـيـةِ الذكرِ
لدى ملك لا يبلغ الوَصْف كنهــه
شريف المســاعى نافذ النهى والأَمْر
إلى بايزيدَ الخيرِ والمَلِكِ الذى
حمى بَيْضـة الإسلام بالبِيضِ والسُّمْرِ
وجَــرَّدَ للدين الحنيــفىّ صـــارمًا
أباد به جَمْع الطـــواغيت والكُفْرِ
وجاهـدهم فى الله حقّ جهـــاده
رجاء بما يَبْغى من الفَــوْز والأَجْر
له هيبــة ملء الصُّـــدُور وصَوْلة
مقسّمــــة بين المخافـــة والذُّعْـــر
أطـــاع له مـــا بين روم وفـــارس
ودان له مـــا بين بُصْرَى إلى مِصْر
هـــو البحـر إلا أنه دائمُ العطا
وذلك لا يَخْلـــو من المـــدّ والجَزْرِ

(١) الخبر والشعر لدى ابن أبى السرور من ٦٥ وما بعدها نقلاً عن المؤلف.
(٢) أوردها بطولها ابن أبى السرور ص٦٦ نقلاً عن المؤلف.

هـــو البَـــدْر إلا أنه كاملُ الضيا
وذاك حليف النقص فى معظم الشهرِ
هـــو الغيث إلاّ أنّ للغيث مَسْكـــةً
وذا لا يزال الدهر يَنْهَلُّ بالقَطْـــرِ
هـــو السيف إلا أن للسيـــف نَبْـــوة
وَفَلاًّ وذا مـاضى العزيمـــة فى الأمر
سليل بنى عثمـــان والسادة الأُلَى
عَلاَ مجـــدُهم فوق السماكَيْن والنَّسْرِ
ملوك كرام الأصـــل طـابَتْ فُرُوعهم
وهـــل يُنْسَب الدينار إلا إلى التِّبْر
مَحَوْا أَثَرَ الكفـــار بالسيف فاغتدت
بهم حوزة الإســـلام ساميـــة القدر
فيـــا ملكًا فـــاق الملـــوك مكـــارمًا
فكلٌّ إلى أدنى مكارمـــــه يجـــرى
لئن فُقْتَهُم فى رتبـــة الملك والعُلا
فإن الليـــالى بعضهـــا ليلة القـــــدر
فدتك ملـــوك الأرض طُرًّا لأنهـــا
سِرَارٌ وأنت البـــدر فى غـــرة الشهر
تعاليـــت عنهم رفعـــةً ومكـــانةً
وذاتًا وأوصـــافًا تجلّ عن الحصـــر
لك العـزّة القعساء والرتبـــة التى
قواعدهـــا تسمـــو على مَنْكِبِ النَّسْرِ
سَمَـــوْتَ عُلُوًّا إنْ دَنَوْتَ تواضُعًا
وقُمْتَ بحـــقّ الله فى السرّ والجَهْر

غَدَتْ بك أرض الروم تَزْهُو ملاحةً
وتَرْفُل فى ثوب الجلالة والفخر
أَلَسْتَ ابن عثمان الذى سار ذكره
مسير ضياء الشمس فى البرّ والبحر
يمينُك تَرْوى عن يسارٍ ونائل
ووجهُك يَرْوى فى البشاشة عن بِشْرِ
وإنى لصوّان لدُرّ قلائدى
عن المدح إلا فيك يا ملك العصر
فقابلْ رعاك الله شكرى بمثله
فإنك للمعروف من أكرم الذّخرِ
فلا زلت محروس الجناب مؤيّدًا
من الله بالتوفيق والعزّ والنَّصْرِ

ويحكى أن القصيدة لما وصلَتْ إليه فرح بها كثيرًا وأمر لصاحبها أحمد العُلَيْف بألف دينار ذهبًا جائزة، ورتب له فى دفتر الصَّرّ فى كل عام مائة دينار ذهبًا كانت تصِلُ إليه فى كل عام وصارت بعده إلى أولاده[1].

وكان للمرحوم السلطان بايزيد عدّة أولاد صاروا ملوكًا وصار لأولادهم أولاد، فمنهم: السلطان جهانشاه، والسلطان أحمد، والسلطان قورقد، والسلطان سليم، والسلطان محمود، والسلطان عبد الله، والسلطان علم شاه، وكان أنجبهم وأمجدهم وأعزّهم وأسعدهم وأكملهم وأرشدهم السلطان سليم شاه وكلُّهم أعلام الهُدَى، ومصابيح الدُّجَى، ونجوم لرجوم شياطين العدا، نَشَئُوا فى مهد السلطنة وحجرها، ونموا ما بين سحرها ونحرها، من شجرة طاب عُودُها، واعتدل عَمُودُها، ولا غَرْوَ أن يجود الجواد كأَصْله، ويَلُوحُ مخايل الليث على شبلِه، والولد سرُّ أبيه فى نَبْله وفَضْلِه، وكلُّ شَىء

(١) المنح الرحمانية ص٦٩.

فى الحقيقة يرجع إلى أصْله:

ملوك بنى عثمان مذ كان أصلهم كَرَامٌ لهم فى المكرمـات مفاخرُ
إذا وُلد المولود منهم تهلّلت له الأرضُ واهتزّت إليه المنابرُ

ولمّا تَرَعْرَعُوا وبرعوا أخرجهم والدهم المرحوم، إلى الصناجق[1] العالية فى بلاد الروم، وأنعم عليهم بالولايات العظام، وحفظ بهم ملك الإسلام، وقلّدهم الأمور الجسام، فجعل لأكبر أولاده السلطان أحمد مملكة أماسية وما والاها، وكان يتوقّع منه أن يكون ولىَّ عهده ويَأبى الله إلا ما أراد، وأنعم على السلطان جهانشاه بمملكة قرمان وأعمالها، وولى السلطان قورقد مملكة منتشا وتوابعها، وجعل للسلطان سليم مملكة طرابزون وهو الذى جرى فى حَلَبة السعادة فسبق ممّا سبق فى علم الله تعالى سلطنته فكان أولى من الجميع وأحقّ، وأعطى السلطان محمود مملكة مغنيسيا، وعيّن للسلطان عبد الله مملكة الكفار[2] وما يليها من بلاد التتار[3]، وكلُّهم ملوك أبرار، وسلاطين كبار:

من تَلْق منهم تَقُلْ لاقيتُ سيّدهم
مثل النجوم التى يُهْدَى بها السارِى

وأسعد الله تعالى جهانشاه، ومحمودًا وأحمد بالوفاة فى حياة والدهم وكفاهم الله تعالى القتل والقتال، وصار حال ما عدا السلطان سليم خان، إلى ما حال، رحم الله تعالى جميع أولئك الأبطال، وعوّضهم عن سلطنة هذه الدار، جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار.

وكان والده السلطان بايزيد استولى عليه مرض النقرس وهو أكثر مرض آل عثمان رحمهم الله تعالى فضَعُفَ عن الحركة وترك السفر سنين متعدّدة، فصار العسكر لبَطَرهم وكثرة راحتهم وسكونهم يتطلّبون سلطانًا شابًا قوىَّ الحركة كثير الأسفار ليجاهد بهم فى سبيل الله ويغنموا من الكفار غنائم،

(١) الصنجق: كلمة تركية تعنى اللواء والراية.
(٢) يقصد بها شبه جزيرة القرم شمالى البحر الأسود.
(٣) المنح الرحمانية ص٦٣.

ويظفروا بأنواع المغانم، ورأوا أن السلطان سليم خان أجلد من سائر إخوانه، وأقوى على ذلك لقوّة جنانه، وعُلُوّ شأنه، فمالوا إليه ومال إليهم فتوجّه بالعَطْف والحُنُوّ عليهم وخرج عليه والدُه محاربًا وركب عليه مقاتلاً ومغاضبًا فقاتله أبوه وهزمه، فولّى هاربًا ثم عطف عليه والده ثانيًا لما رأى ميل العسكر إليه واختيارهم له على والده واجتماعهم عليه، ورأى السلطان بايزيد توجُّهَ أركان الدولة والعسكر إلى السلطان سليم وأشار عليه وزراؤه أن يفرغ من السلطنة للسلطان سليم، بقلب سليم، ويختار التقاعد فى أدرنة فى عزّة وتعظيم، وأبرموا عليه فى ذلك فما رأى بُدًا من إجابتهم إلى ما سألوا وموافقتهم على ما طلبوا منه وأمّلوا فطلبه إلى حضوره وعهد إليه بالسلطنة وسلم إليه التَّخْتَ وتوجَّهَ مع خواصّ خُدَّامه إلى أدرنة، فلمّا وصل إلى قرية جورلو انكسر زجاج مزاجه، وعجز الأطبّاء عن علاجه، وسقاه ساقى الحمام كأس أجله المحتوم، فسلم إلى قابض الأرواح روحه المرحوم، وأقدم على الله الحىّ القيُّوم، ورُزق مرتبة الشهادة، ونال بها أعلى درجات السعادة، وانتقل من الملك الزائل الفانى، إلى الملك الدائم الباقى، وكان ذلك فى سنة ثمانى عشرة وثمانمائة[1].

وولى عوضه السلطان الأعظم السلطان سليم خان[2] كاسر سلطان العجم وفاتح إقليم مصر وسائر ممالك العرب طيّب الله ثراه، وجعل الفردوس محلَّه ومأواه، مولده فى أماسية سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وجلس على تخت السلطنة وعُمره ستّ وأربعون سنة، وكانت مدة سلطنته تسع سنين وثمانية أشهر، وكان عمره جميعًا أربعًا وخمسين سنة لم يعمّرْ أكثر من ذلك، ولم تطُلْ مدّة سلطنته لأنه كان سَفَّاكًا كثير القتال وهذه عادة الله تعالى فى السلاطين والأمراء والحُكّام إذا أكثروا من سفك الدماء، وكان سلطانًا قَهَّارًا، ملكًا جَبَّارًا، كثير السفك قوىَّ البطش عظيم الفَتْك كثير الفَحْص عن أخبار

(١) المنح الرحمانية ص٦٩ ـ ٧٠.

(٢) انظر فى سلطنة السلطان سليم: المنح الرحمانية ص٧١ وما بعدها.

الناس، شديد التوجُّه إلى أهل النجدة والباس، عظيم التَّحَسُّس عن أخبار الممالك، عارفًا بمَسَارب الطُّرُق والمسالك، وكان يغيّر زيّه ولباسه ويتجسّس بالليل والنهار، ويطلع على الأخبار ويستكشف الأسرار، وله عُدَّة مصاحبين يدورون تحت القلعة وفى الأسواق والجمعيات والمحافل، ومهما سمعوا به ذكروه له فى مجلس المصاحبة فيعمل بمقتضى ما يسمعه بعد الوثوق منهم.

وقد أدركتُ جماعة من مصاحبيه المذكورين وسمعتُ منهم حُسن مصاحبة السلطان سليم المرحوم معهم ولطف معاشرته لهم وشدّة تيقُّظه ودقّة فهمه وتحفُّظه مع كثرة مطالعته للتواريخ وتفرُّسه فى اللُّغة الفاسية وحُسن نظمه بالفارسية والرومية، بحيث فاق فيه فُصَحاء الطائفتين ورأيتُ بَيْتَيْن بالعربىّ بخطّه الشريف كتبهما فى عُلُوّ المقياس فى الكوشك الذى أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة قد امحى لطول الزمان مداده، ومال إلى لون البياض سَوَاده، وكان هذا الكوشك محترمًا مقفلاً لا يَصِل إليه أحد لعظمة بانيه ولا يبتذل بالدخول إليه تعظيمًا لراعيه.

فلما قدمتُ إلى مصر فى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وكان يوم كسر النيل السعيد، ففتحوا هذا الكوشك لبكلربكى مصر يومئذ خسرو باشا وكنت مصاحبًا لمعلّمه مولانا عبد الكريم العجمى فطلع وأطلعنى معه فى صحبة خسرو باشا المذكور، فرأيتُ مكتوبًا على الرخام الأبيض كتابة خفيّة لا تكاد تظهر إلا بتأمُّل هذين البيتين وهما:

المُلك لله من يظفر بنيل غنًى ... يردده قَسْرًا ويضمن منه ما أدركَا

لو كان لى أو لغيرى قدرُ أنملة ... فوق التراب لكان الأمر مشتركَا[1]

وتحتهما ما صورته: كتبه سليم بذلك الخطّ وذلك القلم، ولعمرى إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية فى البراعة ونهاية فى التمكُّن من الصناعة، فيدلُّ على تمكُّنه رحمه الله تعالى أيضًا فى اللسان العربى لأنهما من أعلى طبقات الشعر العربى الفصيح البليغ المنسجم، وإن كان قد تمثّل

(١) المنح الرحمانية ص٧١ ـ ٧٢.

بهما وهما لغيره فهذه أيضًا من مرتبة عالية فى حُسن التمثيل ولُطف الاستحضار لفهم الأشعار العربية والذوق لها، وهذا القدر يستكثر على علماء الروم وعلماء العجم المكبّين على علوم العربية، فضلاً عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها والفائقون فى ذوق الشعر العربى وحسن أدائه من العلماء والموالى فى غاية القلة معدودون منهم ولا يُعَدّ هذا نقصًا فيهم لأن فهم الشعر العربى على وجهه وذوقه كما ينبغى قليل أيضًا فى علماء العرب إلا من توغّل منهم فى علم الأدب وتعب فى تحصيله ودأب.

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً وقد صاروا أقلَّ من القليل

ثم لمّا استولى السلطان سليم على سرير السلطنة وفرغ من دفن والده، خرج إلى قتال أخيه السلطان أحمد ففرّ لهيبة السلطان سليم عسكر أحمد وبقى فى عدد قليل، فأُخذ أسيرًا وأتى به إلى السلطان سليم فأمر بخنقه فخُنق بالوتر فى تاسع صفر سنة تسع عشرة وتسعمائة، ثم فرّ السلطان قورقد إلى كهف جبل وأراد التسحُّب منه إلى مكان سحيق فعُرف مكانه فُمسِكَ وجيء به إليه فخُنق، وكذلك فعل بالسلطان محمد بن السلطان شاهنشاه والسلطان عثمان بن السلطان عالمشاه، والسلطان مصطفى، والسلطان أورخان، والسلطان سليمان أولاد السلطان محمود، وسبعة من الأولاد كلُّهم رُضَّعٌ فى المُهُد خنقهم فى ليلة واحدة فى بروسا، فكانت ليلة ملأت البلاد بكاء وعويلاً، وصُراخًا أعظم من صراح الثَّكْلَى ومأتَمًا طويلاً، بكت فيها حتى الحجارة تتفجّر منها مدامع الأنهار، وتشقّق ثيابها حتى كمائم الأزهار، ولطم الخدود حتى الشفق، إلى أن احمرّ ثم اسودّ، ولبس حتى الليل ثياب الحداد وتعمّم بالأسود، وكان أمرُ الله قدرًا مقدورًا، وسيف الفناء بيد القضاء ماضيًا مشهورًا.

فلا المُعَزّى بباقٍ بعد ميّته ولا المعزَّى وإن عاشا إلى حين

فلمّا استقرّ السلطان سليم على سرير الملك، وهيهات أين الاستقرار؟ وثبت على تخت السلطنة، وأنّى له بالثبوت والقرار؟ شرع فى قهر الملوك

وأخذ الممالك، والاستيلاء على الأقاليم والبُلدان والمسالك، فبدأ بقتال شاه إسماعيل بن الشيخ حَيْدَر الصوفى كما سنذكره مجملاً فى ذلك من هذا الفصل الثانى، فإنى ما ظفرتُ بكتاب فيه تفصيل ذلك، وإنما تلقيته من أفواه الرجال، وأخبرنى ثقة من أعيان كتبة الديوان الشريف على أن السلطان بايزيد رحمه الله تعالى حذره منجّم حاذق فى أهل عصره أن هلاكه يكون على يد ولد يُولد له بعد ما ولُد له عشرة أولاد، وكان تحذيره له قبل أن يولد السلطان سليم فطلب امرأة معتمدة عنده بيدها جواريه الموطوءات، وهى قابلة لمن تضع حملها منهنّ وكانت من الصالحات، الخيّرات الديّنات، فقال لها: إذا وضعت إحدى الجوارى بعد الآن صبيًا فاقتليه ولا تبقيه حيًا، وإذا ولدت أنثى اتركيها لتعيش مع بناتى، وأكّدَ عليها فى ذلك غاية التّأكيد، واستمرّت على ذلك إلى أن ولدت السلطان سليم والدتُه فرأته صبيًا فحزنت عليه وتناولته القابلة لتخنقه فرأت صورة جميلة فرّقت وقالت فى نفسها: بأىّ وجه ألقى الله تعالى فى قتل هذا الطفل المعصوم؟ والله لا أقدم على قتله، وقالت لبايزيد بأنه قد حصلت له بنت جميلة حسنة الصورة، فلمّا أخبر بذلك سمّاها سَليمَة واستمرّ على ذلك والحال مكتوم لا يعلمه غير القابلة والأم والله سبحانه وتعالى، وصار كلّما كَبُرَ وانتشأ ظهر عليه سيماء الغلبة والقهر، وإذا اجتَمَعْنَ البنات وجلس بينهنّ لطم من إلى جانبه وضرب ونهب ما وجد بأيْديهنّ من ملعوبات الأطفال وكانوا يحذرون منه.

فدخل السلطان بايزيد فى يوم عيد إلى داخل السَّراى وأمر أن يُطَيَّب المكان ويُزَيَّن واستدعى ببناته وأجلسهنّ بين يديه وأمر أن يوضع بين يدى كل واحدة منهنّ أنواع الحلاوى والفواكه، وأُحْضر بينهن السلطان سليم واسمه سَليمة، فشرع فى عرامته على عادته، وخطف ما بين أيديهن من الحلاوى والفواكه ووضع الكلّ بين يدى نفسه والكلُّ خائفات منه هايبات له، فتعجّب السلطان بايزيد لذلك وصار يتأمّله حديداً.

وفى أثناء ذلك دار حولهم يعسوب كبير أرادوا مَسْكه فعجزوا عنه وهو

يلسع من يُريد مَسْكه فيهربون منه، فمدّ السلطان سليم يده وهو طائر حوله فصاده بكفّه ومرسه وخبطه ورماه من يده، فازداد تعجُّب السلطان بايزيد منه وقال للنساء الواقفات: هذا لا يكون بِنْتًا اكشفن لى عنه فبادرت القابلة وقالت: نعم هذا صبيٌّ وليس ببنت، فقال لها: وكيف خالفت أمرى وما قتلتيه؟ فقالت: خفتُ من الله ربِّ العالمين، وخَلَّصْتُ ذمّتك وذمّتى من قتل معصوم ولا ذنب له، فتفكّر طويلاً ثم قال ما قدّر الله فهو كائن لا مَفَرَّ عنه، أمر بالكفّ عنه وتربيته وسمّاه سليمًا إلى أن كان ما كان بتقدير الله تعالى.

* * *

الفصل الثانى

فى قتال شاه إسماعيل وانهزامه

هو شاه إسماعيل بن الشيخ حَيْدَر بن الشيخ جُنَيْد بن الشيخ إبراهيم بن سلطان خواجا شيخ على بن الشيخ صدر الدين موسى بن الشيخ صَفِىّ الدين إسحاق الأردبيلى وإليه يُنْسَب أولاده، فيقال لهم: الصَّفَوِيُّون.

وكان الشيخ صفى الدين صاحب زاوية فى أردبيل، وله سلسلة فى المشايخ، أخذ عن الشيخ زاهد الكيلانى وينتهى بوَسَائط إلى الشيخ الإمام أحمد الغزالى، وتوفّى الشيخ صفى الدين فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وهو أول من ظهر منهم بطريق المشيخة والتصوُّف، وأوّل من اختار سُكنى أردبيل، وبعد موته جلس فى مكانه ولده الشيخ صدر الدين موسى وكانت السلاطين تعتقد فيه وتزوره، وممّن زاره والتمس بركته تيمور لمّا عاد من الروم وسأله أن يطلب منه شيئًا، فقال له: أطلب منك أن تطلق كلَّ من أخذته من بلاد الروم سُرْكُنًا، فأجابه إلى سؤاله وأطلق السُّرْكن جميعهم، فصار أهل الروم يعتقدون الشيخ صدر الدين وجميع المشايخ الأردبيليّين من ذرّيته إلى الآن.

وحجّ ولده سلطان خواجا علىٌّ وزار النبى ﷺ وتوجّه إلى زيارة بيت المقدس وتوفى هناك، وقبره معروف فى بيت المقدس، وكان ممّن يعتقده ميرزا شاه رخ بن تيمور ويعظمه، فلمّا جلس الشيخ جُنَيْد مكان والده فى الزاوية بأَرْدبيل كثر مريدوه وأتباعه فى أردبيل، فتوهم منهم صاحب أذربيجان يومئذ وهو السلطان جهانشاه بن قرا يوسف التركمانى من طائفة قره قُوينلو، فأخرجهم من أردبيل فتوجّه الشيخ جُنَيْد مع بعض مريديه إلى ديار بكر، وتفرّق عنه الباقون.

وكان من أمراء ديار بكر يومئذٍ عثمان بيك بن قُتلق بيك بن على بيك من طائفة آق قُوينلو جدّ أوزن حسن بيك البابندرى، وهو أول من تسلطن من طائفة آق قوينلو، وولى السلطنة منهم تسعة أنفس ومدّة ملكهم اثنتان وأربعون سنة، وأخذوا ملك فارس من طائفة قره قوينلو.

وأوّل سلاطينهم قره يوسف بن قره محمد التركمانى ومدة سلطنتهم ثلاث وستون سنة، وانقرض ملكهم على يد أوزن حسن بيك المذكور فى شوال سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وكان أوزن حسن بيك ملكًا شجاعًا مقدامًا مطاعًا مظفّرًا فى حروبه ميمونًا فى نزوله وركوبه، إلا أنه وقع بينه وبين السلطان محمد بن السلطان مراد خان حرب عظيم فى بايبرت، فانكسر أوزن حسن بيك وقُتل ولده زنيل بيك وهرب هو وسلم من القتل، وعاد إلى أذربيجان وملك فارس والعراقين.

فلمّا التجأ الشيخ جُنَيْد إلى طائفة آق قوينلو صاهره أوزن حسن بيك وزوجه بنته خديجة بيكم، فولدت له الشيخ حَيْدَر، ولّما استولى أوزن حسن بيك على البلاد وطرد عنها ملوك قره قوينلو وأضعفهم عاد الشيخ جنيد مع ولده الشيخ حيدر إلى أردبيل وكثر مريدوه وأتباعه وتقوّى بأُوزُن حسن بيك لأنه صهره.

فلمّا توفى أوزن حسن بيك ولى موضعه ولده السلطان خليل ستة أشهر، ثم ولده الثانى السلطان يعقوب فزوّج بنته حليمة بيكم من الشيخ حيدر فولدت له شاه إسماعيل فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وكان على يديه هلاك ملوك العجم طائفة آق قوينلو وقره قوينلو وغيرهم من سلاطين العجم كما هو معروف مشهور.

وكان الشيخ جنيد جمع طائفة من مريديه وقصد قتال كرجستان ليكون من المجاهدين فى سبيل الله، فتوهم منه سلطان شروان أمير خليل الله شروان شاه فخرج إلى قتاله فانكسر الشيخ جنيد وقُتل وتفرّق مريدوه، ثم اجتمعوا بعد مدّة على الشيخ حيدر وحسّنوا له الجهاد والغزو فى حدود كرجستان

وجعلوا لهم رماحًا من أعواد الشجر وركّبوا فى كلّ عود سنانًا من حديد وتسلّحوا بذلك، وألبسهم الشيخ حيدر تاجًا أحمر من الجوخ فسمّاهم الناس قزلباش، وهو أول من ألبس التاج الأحمر لأتباعه واجتمع عليه خلق كثير.

فأرسل شروان شاه إلى السلطان يعقوب بن أوزن حسن يُخَوّفه من خروج الشيخ حيدر على هذه الصفة، فأرسل له أميرًا من أمرائه اسمه سُليمان بك بأربعة آلاف نفر من العسكر وأمره أن يمنعهم من هذه الجمعيّة، فإن لم يمتنعوا أذن له أن يقاتلهم، فمضى إلى الشيخ حيدر ومنعه من هذه الجمعية فما أطاعه، فاتّفق مع شروان شاه فقاتلاه ومن معه فقُتل الشيخ حيدر وأُسر ولده شاه إسماعيل وهو طفل وأُسر معه إخوانه وجماعته وجاء بهم سليمان بك إلى السلطان يعقوب، فأرسل بهم إلى قاسم بك الفرناك وكان حاكم شيراز من قبل السلطان يعقوب، وأمره أن يحبسهم فى قلعة إِصْطَخْر، فحبسهم بها واستمرّوا محبوسين فيها إلى أن توفى السلطان يعقوب فى سنة ست وتسعين وثمانمائة، وتولى بعده السلطان رستم ونازعه فى السلطنة إخوته وتفرّقت المملكة واستقلّ فى كلّ قُطْر واحد من أولاد السلطان يعقوب، فهرب أولاد الشيخ حيدر إلى لاهجان من بلاد كيلان، وخرج من إخوان شاه إسماعيل خواجه شاه علىٌّ بن الشيخ جنيد وجمع عسكرًا من مريدى والده وقاتل بهم فقُتل فى أيام السلطان رستم ابن السلطان يعقوب.

ثم توفى السلطان رستم وولى مكانه السلطان مراد بن يعقوب وأَلْوَنْد بيك ابن عمّه، وكان شاه إسماعيل فى لاهجان فى بيت صائغ يقال له نجم زركر، وبلاد لاهجان فيها كثير من الفرق الضَّالّة كالرافضة والحروفية[1] والزيدية وغيرهم فتعلّم منهم شاه إسماعيل فى صغره مذهب الرفض، فإن آباءه كان شعارهم مذهب السُّنَّة السُّنِيَّة وكانوا مطيعين منقادين لسُنَّة رسول الله ﷺ، ولم يُظهر الرفض غير شاه إسماعيل وتطلّبه من أمراء ألوند بيك

(١) فرقه شيعية أنشأها فضل الله الأسترباذى فى أواخر القرن الثامن الهجرى، وأدخلها فى الدولة العثمانية أحد تلاميذ فضل الله، وانضم إليها الدراويش البكتاشية.

جماعة وطلبوه من سلطان لاهجان فأبى أن يسلّمه لهم، فأنكر وحلف لهم أنه ما هو عندى ووَرَّى فى يمينه وكان مختفيًا فى بيت نجم زركر، وكان يأتيه مريدو والده خفية ويأتونه بالنذور ويعتقدون فيه ويطوفون بالبيت الذى هو ساكن فيه إلى أن أراد الله بما أراد وكثرت داعية الفساد، واختلفت أحوال البلاد، باختلاف السلاطين وكثرة العناد بين العباد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وحينئذ كثر أتباع شاه إسماعيل فخرج هو ومن معه من لاهجان وأظهر الخروج لأخذ ثأر والده وجدّه فى أواخر سنة خمس وتسعمائة وعمره يومئذ ثلاث عشرة سنة، وقصد مملكة الشروان لقتال شروان شاه قاتل أبيه وجدّه، وكلّما سار منزلاً كثر عليه داعية الفساد، واجتمع عليه عسكر كثير إلى أن وصل إلى بلاد شروان، فخرج لمقاتلته شروان شاه بعساكره وقاتلهم وقاتلوه فانهزم عسكر الشروان وأسر شروان شاه وأتوا به إلى شاه إسماعيل أسيرًا فأمر أن يضعوه فى قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه، ففعلوا كما أمر وأكلوه وكان ذلك أول فتوحاته.

ثم توجّه إلى قتال الوند بيك: فقاتله وانهزم منه واستولى على خزائنه وقسمها فى عسكره، وصار يقتل من ظفر به قتلاً ذريعًا ولا يمسك شيئًا من الخزائن بل يفرّقها فى الحال، ثم قاتل مراد بيك ابن السلطان يعقوب فهزمه فى الحال، وأخذ خزائنه وفرّقها على عسكره، ثم صار لا يتوجّه إلى بلاد إلا يفتحها ويقتل جميع من فيها وينهب أموالهم ويفرّقها إلى أن ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العرب وعراق العجم وخراسان، وكاد أن يدّعى الربوبية وكان يسجد له عسكره ويأتمرون بأمره، وقتل خلقًا لا يُحْصون ينوف على ألف ألف نفس، بحيث لا يُعْهَد فى الإسلام ولا فى الجاهلية ولا فى الأمم السابقة مَنْ قَتَل من النفوس ما قتله شاه إسماعيل.

وقتل عدّة من أعاظم العلماء بحيث لم يبق أحدًا من أهل العلم فى بلاد العجم وأحرق جميع كُتُبهم ومصاحفهم لأنها مصاحف أهل السُّنَّة، وكلّما مرّ

بقبور المشايخ نبشها وأخرج عظامهم وأحرقها، وإذا قتل أميراً من الأمراء أباح زوجته وأمواله لشخص آخر.

ومن جملة مضحكاته أنه جعل كلبًا من كلاب الصَّيْد أميراً، ورتب له ترتيب الأمراء من الخدم والكواخى والسماط والكيلار والأوطاق والفرش الحرير ونحو ذلك وجعل له سلاسل من ذهب ومرتبة ومسندة يجلس عليها كالأمراء.

وسقط مرّة منديل من يده إلى البحر وكان فى جبل شاهق مشرف على البحر المذكور فرمى نفسه خلف المنديل من عسكره فوق ألف نفس تحطّموا وتكسّروا وغرقوا، وكانوا يعتقدون فيه الأُلوهية ويعتقدون أنه لا ينكسر ولا ينهزم إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة.

فلمّا وصلت أخباره إلى السلطان سليم خان تحرّكت فيه قوّة العصبية الغضبية، وأقدم على نصر السُّنَّة الشريفة السَّنية، وعُدَّ هذا القتال من أعظم الجهاد، وقصد أن يمحو من العالم هذه الفتنة وهذا الفساد، ويَنْصُر مذهب أهل السُّنَّة الحنيفية على مذهب أهل البِدَع والإلحاد ويَأبى الله إلا ما أراد، فتهيَّأ السلطان سليم بخيله ورجله، وعساكره المنصورة ورحله، وسافر لقتاله، وأقدم على جلاده وجداله، وهو يَجُرُّ الخميس العَرَمْرَم، ويصول بسيف عزمه ويَقْدَم، ويتقَدَّم إلى أن تلاقى العسكران فى قرب تبريز، ورتب السلطان سليم عسكره وتنزّل من عند الله الفتح القريب والنصر العزيز، فتَجَالَد الفريقان بَجَالْدِرَان، وتطارد الفُرسان وتعانق الشجعان، يَهْدُرون كالبخاتى الفواجل، فوق البحور الموائج، وتصادمت فرسان الزحف والصيال، تصادم أطواد الجبال، وصارت نجوم الأبطال، رُجُوم البطش والقتال، فزلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأهوال أثقالها، وخيّلت المَعْرَكَة سماء غَمَامها القسطل، وصواعقها بروق البيض من بريق الصَّيْقل، ورُعُودها صليل السيوف فى أعناق الجحفل، وغيوثها صبيب الدم من أوداج رءوس تُحَزُّ وتُفْصَل، وأحجار المدافع كجُلْمود صخر حطّه السيل من عل، إلى أن طارت قلوب

الأعداء هَوَا، وذهبت قواهم هَبَا، وولوا على أدبارهم أدبارا، وانهزم شاه إسماعيل وولّى فرارا، ولم يجدْ له من دون الله أنصارا.

وضاقت الأرض حتى أن هاربهم إذا رأى غير شيء ظنّه رَجُلاَ

وقُتل غالب جنوده وأمرائه وساقت العساكر المنصورة العثمانية من وراءه، وكادوا يقبضون عليه، ففرّ من بين أيديهم وهم ينظرون إليه، وترك ما تخوّله فى مخيّمه من أثاث تجملاته، وكان لا نظير له فاغتنمه عسكر السلطان سليم ووطئت حوافر خيله أرض تبريز فنَهَى فيها، وأَمَرَ ، وقتل من أراد وأَسَرَ، وأعطى الرعيّة تمام الأمن والأمان، ونشر فيها أعلام أهل الإيمان، وأخذ من أراد منها من الفضلاء الأفاضل، والمتميّزين فى الصنائع والفضائل، والشعراء الأماثل، وساقهم سُرْكُنًا إلى إصْطَنْبُول على القانون، وأراد أن يقيم فى تبريز للاستيلاء على إقليم العجم، والتمكّن من تلك البلاد على الوجه الأتم، فما أمكنه ذلك لكثرة القَحْط واستيلاء الغلاء بحيث بيعت العليقة بمائتى درهم، وبيع الرغيف الخبز بمائة درهم، وسبب ذلك أن القوافل التى كان أَعَدَّها السلطان سليم لأن تَتْبعه بالميرة والعليق والمؤن تخلّفت عنه فى محلّ الاحتياج إليها، وما وجدوا فى تبريز شيئًا من المأكولات والحبوب، لأن شاه إسماعيل عند انكساره أمر بإحراق أجران الحبّ والشعير وغير ذلك.

فاضطرّ السلطان سليم خان إلى العود من تبريز إلى بلاد الروم وتركها خالية خاوية على عروشها، ثم تفحّص عن سبب انقطاع القوافل عنه فأُخْبر أن سبب ذلك سلطان مصر قانصوه الغورى فإنه كان بينه وبين شاه إسماعيل محبّة ومَوَدَّة ومراسلات بحيث إنه كان السلطان قانصوه الغورى يتّهم بالرفض فى عقيدته بسبب ذلك.

فلمّا ظهر للسلطان سليم خان أن الغورى هو الذى أمر بقطع القوافل عنه صمّم على قتال السلطان الغورى أوّلاً، وبعد الاستيلاء عليه وعلى بلاده يتوجّه إلى قتال شاه إسماعيل ثانيًا فلمّا استقرّ ركاب السلطنة الشريفة العثمانية فى تخت مكلها الشريف تهيّأ لأخذ مصر وإزالة دولة الجراكسة

عنها، وتوجّه بعسكره الجرّار إلى ناحية حلب فى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، وخرج إلى قتاله قانصوه الغورى بجميع عساكره من الجراكسة وغيرهم، وتلاقى العسكران بقرب حلب فى مرج دابق، وكان الغورى يتوهم ويخاف على نفسه من ملك الأمراء خير بك ومن جان بردى بك الغزالى، وكانا يكرهانه فى الباطن ويكرههما كذلك، فأمرهما أن يتقدّما لقتال السلطان سليم وجعلهما وعسكرهما حجابًا أمامه ووقف الغورى بخواصّ عسكره الذى يعتمد عليهم من الجُلبان الذين أراد أن يقدمهم خلف خير بك والغزالى، وقصد بذلك أن يُقْتَلاَ بالبَنادق والضَّرْبُزن[1] فى أول مرّة ثم يَسْلم هو ومن معه، وتفطّن خير بك والغزالى لذلك، وكان أرسلا إلى السلطان سليم، وطلبا منه الأمان، وتوثقا منه أن لا يقتلهما بل يكرمهما وينعم عليهما، فأرسل السلطان سليم لهما بالأمان وعهد لهما بما يُطَيّب خاطرهما وأن يولّيهما مملكة مصر والشام، فقبلا ذلك منه ووافقاه على ذلك قبل القتال، فلمّا تلاقى العسكران واضطربت نيران البنادق فى مرج دابق فرّ خير بك بمن معه من الميمنة وفرّ الغزالى بمن معه من الميسرة، وبقى السلطان الغورى بمن معه من خواصّه وجُلبانه فى القلب، وأطلقت البنادق والضربزانات فهلك من هلك، وهرب من هرب لا يدرى أين سلك، وانقلب النهار ليلاً مظلمًا بالدخان، وامتلأ وجه الأرض بشعل النفط والنيران، وغار الغورى تحت سنابك الخيل[2].

ومحا نور العدل ظلام الظلم كما يمحو النهار الليل، وذهبت ظلامات الجراكسة كأنهم كانوا هَبَاءً منثورًا، وأكلت أشلاء قتلاهم الوحوش والطيور كأن لم يكونوا شيئًا مذكورًا.

وأقبلت رايات إقبال السلطان سليم على قلعة حلب الشهباء، وقد احمرَّت

(١) الضربزانات: من أنواع المدافع الثقيلة، كانت مستعملة فى الجيش العثمانى لضرب الأسوار والقلاع الحصينة، تحشى بالبارود وتشعل فيها النيران فتندفع القذيفة بشدة إلى مرماها.

(٢) المنح الرحمانية ص٧٥.

من إسالة الدماء، فطلب أهلها منه الأمان والتسليم، فأجابهم إلى القبول لطفًا وكرمًا، فخرجوا إلى لقائه بالمصاحف والأعلام، وهم يجهرون بالتسبيح والتكبير ويقرءون: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:١٧]، فقابلهم بالإجلال والإكرام، وأخلع على كواهلهم خلع اللطف والإنعام، وتصدّق بأنواع الصدقات الجزيلة على الخاصّ والعامّ، وحضر صلاة الجمعة وخطب الخطيب باسمه الشريف، ودعا له ولآبائه وأسلافه وبالغ فى المدح والتعريف:

وما زاده الألقاب فخرًا وسوددًا بإطناب ذى مـــدح وإكثار مادِح

وعندما سمع السلطان سليم الخطيب يقول فى تعريفه: خادم الحرَمَيْن الشريفين، سجد لله تعالى شكرًا، وقال الحمد لله الذى يسّر لى أن صِرْتُ خادم الحرمين الشريفين، وأضمر خيرًا جميلاً وإحسانًا جزيلاً لأهل الحرمين الشريفين، وأظهر الفرح والسرور بتلقبه بخادم الحرمين الشريفين، وخلع على الخطيب خلعًا متعدّدة وهو على المنبر وأحسن إليه إحسانًا كثيرًا بعد ذلك، وأقام بحلب أيامًا يسيرة وهو يمهّد الملك ويجرى أحكام المعدلة والسياسة ويحسن إلى العرب[١].

ثم ارتحل بالجيش المنصور إلى الشام فخرج أهل الشام إلى لقائه وطلبوا منه الأمن والأمان، واللطف والرأفة والاطمئنان، فأجابهم إلى ما سألوه، وبسط لهم ما طلبوه وأمّلوه، فقبّلوا الأرض بين يَدَيْه، وبالغوا فى الدعاء بدوام دولته والثناء عَلَيْه، فخلع على كلّ ممّن يستحق التشريف خلع الرضا والإكرام، وألبسهم التشاريف الفاخرة كُلاًّ بحسب حاله واستحقاقه للإنعام، ودخل إلى الشام بموكبه الكريم، وأقام به لتمهيد أمور المملكة برأيه الشريف القويم، وخطب له الخطباء فخلع عليهم، وأكرمهم وأحسن إليهم، وقابل الناس بسنٍّ ضاحكٍ ووجهٍ متهلّلٍ سرور، وجبينٍ أغرَّ يملأُ الأرجاء ضياءً ونورًا[٢].

(١) المنح الرحمانية ص٨٢ ـ ٨٣.

(٢) المنح الرحمانية ص٨٣.

وأمر بعمارة تُرْبة الشيخ الأكبر والإكسير الأحمر مولانا الشيخ محيى الدين ابن عربى ورتب عليه أوقافًا كثيرة وعمل له مطبخًا يطبخ الطعام فيه لفقراء الشيخ وجعل عليها متوليًا وناظرًا يجمع الريع ويصرفه فى جهات الخير ونظرُهُ من أعظم الأنظار فى بلاد الشام إلى الآن، وما يسر الله تعالى أجرًا مثل هذا الخير العظيم لأحد من ملوك الجراكسة ولا من كان قبلهم[١].

ولا شك أن روحانية الشيخ رضى الله عنه هى التى جلبت السلطان سليم طيّب الله ثراه إلى سلطنة بلاد العرب، وحصل له الإمداد العظيم بالبركة والنصر والتأييد فى حصول ما أمّله وطلب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله تعالى يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممّن يشاء، بيده الخير وهو على كلّ شىء قدير.

واستمرّ السلطان سليم خان بأرض الشام إلى أن مهّد أمورها، وضبط حصونها وقصورها، ثم توجّه إلى افتتاح إقليم مصر، ودفع البؤس عنها والإصر، فلمّا وصل إلى خان يونس قتل فيه الوزير المعظم حسام باشا وكان من أهل الخير، وله عمارة فى آق شهر يخرج منها الطعام للمسافرين دائمًا رحمه الله تعالى[٢].

واستمرّ السلطان سليم متوجّهًا إلى مصر فوصل إلى بلاد غزّة، ثم عدل منها بمفرده إلى زيارة القدس والخليل فى نفر قليل بقصد الزيارة، فأحسن إلى أهل القدس، وأهل خليل الرحمن وعاد إلى معسكره وسار وصار كلّما مرّ ببلدة أو قرية أو قصبة فى طريقه أحسن إلى الرعايا[٣]، ونظر بعين المعدلة والإحسان إلى البرايا، وأزال عن الضُّعَفاء ظلم الظالمين، ونشر العدل فى العالمين.

وفرّ بقية السيوف من الجراكسة إلى مصر وولوا عليهم الدوادار الكبير مقدّم ألف طومان باى ولقّبوه بالملك الأشرف واجتمعوا عليه، وألقوا مقاليد

(١) المنح الرحمانية ص٨٣.

(٢) المنح الرحمانية ص٨٤ ـ ٨٥.

(٣) المنح الرحمانية ص٨٥.

سلطنتهم إليه، وساروا بمواكبهم بين يَدَيْه، وجنّدوا الجنود، وعقدوا الألوية والبنود، وبرزوا إلى الريدانية خارج مصر ونصبوا المدافع الكبار، وملئوها بالبارود والأحجار، وهَيئوها ليطلقوها إذا أقبلت العساكر العثمانية[١].

فلمّا أخبرهم الجواسيس بذلك عدلوا إلى ميسرتهم، وجاءوا من خلف جبل المقطّم من وراء عسكر الجراكسة، ورموا بالمدافع الكبار والمكاحل الضربزانات على العجل، واستمرّت مدافع الجراكسة مركوزة لمن يأتى من أمام الريدانية بلا نفع ولا دفع، وقاتل السلطان طومان باى ومن ثبت معه من أمراء الجراكسة قتالاً قويًا، وأظهر طومان باى شجاعة قوية عُرِفَ بها وشهد له المصافُّ وهو يغوص فى العسكر ويحمل ويعود ويكرُّ ويفرُّ، وقُتل من وزراء السلطان سليم فى ذلك اليوم سنان باشا، وأسِفَ السلطان سليم على شهادته[٢].

ومن جملة نُكَته أنه قال لمّا أُخْبر بهُرُوب عساكر الأعداء وأخذ مصر وقتل سنان باشا، أىُّ فائدة فى مصر بلا يوسف؟ ووجه النكتة أن يوسف يلقّب بسنان فى عرفهم.

وبعد أن ثبتوا ساعة انكسروا فهربوا وتمزّقوا وتشتّتوا وتفرّقوا وهرب طومان باى إلى البر ونزل على شيخ عُربان من بنى جذام عبد الدائم بن بقر، ودخل السلطان سليم إلى مصر ونزل فى ساحلها فى الجزيرة الوسطانية وطاف عسكره بالبلد وأمنوا الناس، وأزالو اعنهم الخوف والباس، ما عدا الجراكسة فإنهم إذا ظفروا بهم ربطوهم وأتوا بهم إلى السلطان سليم خان فيأمر بضرب رقابهم وتُرْمَى جثثهم فى بحر النيل، وتُجْمع رءوسهم أكوامًا بعد أكوام إلى أن عفنت الجزيرة بروائح القتلى وعفونة رءوسهم، فانتقل السلطان سليم إلى المقياس وأمر أن يُبنى له فى عُلُوّه كَوْشَك[٣] عالٍ سكنه مدّة مقامه بمصر هربًا

(١) المصدر السابق ص٨٦.

(٢) المنح الرحمانية ص٨٦ ـ ٨٧.

(٣) الكُشْكُ: الجَوْسق والكوخ. وهو بالفارسية: كَوْشك.

من عفونات أشلاء القتلى[١].

ثم إن شيخ العرب عبد الدائم تقرّب إلى خاطر السلطان سليم خان وسلم إليه السلطان طومان باى أسيرًا، فأنعم السلطان سليم على شيخ العرب بالخلع والتشاريف والإنعامات السلطانية وحبس طومان باى عنده، وأراد أن يكرمه ويجعله نائبًا عنه بمصر إذا برز عنها إلى الروم، وصار يحضره فى مجلس الصُّحبة ويستخبره عن الأمور والأحوال، فأرجف أهل مصر عن طومان باى أنه لم يقع فى الأَسر وأنه اختفى وأنه يجمع عسكرًا وينتهز الفُرصة، وأنه شجاع لا يطاق ولا يقدر على مسكه أحد، فبلغ السلطان سليم خان أراجيف الناس ورأى أن الفتنة لا تسكن ما دام طومان باى محبوسًا فأمر أن يركب على بغلة ويحفّ به اليكيجرية ويمضى به إلى باب زُويلة ويُصْلَب فيه ليراه الناس بأعينهم ويصدقوا بأنه مُسِكَ، فصُلِبَ على باب زويلة لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة[٢].

ثم ولى القضاة الأربعة على المذاهب الأربعة بمصر، وهم: قاضى القضاة كمال الدين الطويل ولاه قضاء الشافعية، وقاضى القضاة نور الدين على بن ياسين الطرابلسى الحنفى قاضى الحنفية، وقاضى القضاة الدميرى المالكى قاضى المالكية، وقاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن النَّجَّار الحنبلى قاضى الحنابلة[٣].

وولى ملك الأمراء خير بك على مصر، وولى جان بردى الغزالى الشام كما وعدهما بذلك، ومهّد الأمور وسار إلى الإسكندرية وعاد إلى مصر، ثم إلى تخت مملكته القسطنطينية العظمى فى يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، وأخذ معه كثيرًا من أعيان مصر سُرْكُنًا إلى الروم كما هو قانونهم، ووصل إلى تخت مُلكه ومقرّ سلطنته مظفّرًا

(١) المنح الرحمانية ص٨٧ ـ ٨٨.

(٢) المنح الرحمانية ص٨٨ ـ ٨٩.

(٣) المصدر السابق ٨٩ ـ ٩٠.

منصورًا، وشكر الله وحمده على نصرته وتأييده وكان عبدًا شكورًا.

وافتقد خزائنه فوجد قد انصرف غالبها فإنه كان قد أصرف على هذين السفَرين وهما السفر إلى بلاد قزلباش والسفر إلى إقليم مصر خزائن عظيمة ممّا جمعه آباؤه وأسلافُهُ، فلمّا أراد سفرًا ثالثًا إلى بلاد العجم لقطع جادرة طائفة القزلباش رأى أن ما بقى من خزائنه لا يفى بتلك المصارف، فتأخر ليجتمع فى خزائنه ممّا يُجْمَع له من خراج البلاد، قدر يفى له بالمراد، ويأبى الله إلا ما أراد:

ما كلّ ما يتمنّى المرء يُدْركه تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

فظهرت فى أثناء ظهره جراحة، منعته الراحة، وحُرِمَتْ عليه الاستراحة، وعجزت فى علاجه حُذَّاق الأطبّاء، وتحيّرت فى دائه عقول الألبّاء، وعظم الجرح، وكبر القرح، واتّسع الخَرْق، والتهب الحَرْقُ، وكانت توضع الدجاجة فى جُرْحه فتذوب بحرّه، وشوهدت معاليق أكباده فى جوفه من خلف ظهره وأنشبت المنية أظفارها فيه فما نفعته التمائم والرُّقى وفُدِىَ بالأموال والأرواح فما قُبِلَ الفدا.

فلو قُبِلَ الفداء لكان يُفْدَى وقد جلّ المصاب عن التفادى
ولكنّ المنون لها عيون تكدّ لحاظها فى الانتقاد
فقُلْ للدهر أنت أُصِبْتَ فالْبس برغم بنيك أثواب الحداد

فقضى نَحْبَهُ، ولقى ربَّهُ، ومضى سليم بقلب سليم، قادمًا على الله الكريم، الغفور الرحيم، وتَبوَّأ مقعدَهُ من سرير الملك نَجْلُهُ الوارث السعيد، كذلك يؤتى الله الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء، وهو الفعّال لما يريد، وكانت وفاته رحمه الله وأسكنه غرف الجنان، وأنزل عليه شآبيب المغفرة والرضوان، فى سنة ست وعشرين وتسعمائة.

* * *

الفصل الثالث

فى بيان ما عمّره المرحوم السلطان سليم خان فى الحرم الشريف وبعض إحسانه إلى أهل الحرمين الشريفين فى أيام سلطنته

كان رحمه الله كوالده المرحوم كثير المحبّة لأهل الحرمين الشريفين حسن الالتفات إليهم كثير الإحسان والعطف عليهم، وضاعف الصدقة الرومية التى كان يجهّزها لهم والده المرحوم ويكرم من قدم عليه منهم أتمّ إكرام، ويحسن إليه أجلّ إحسان وإنعام، فوصلتْ صدقاته الرومية ووصل معها دفتر الصُّرّ[١] على حُكم ما قرّره والده المرحوم لأهل الحرمين فى أول سلطنته عام ثمانية عشرة وتسعمائة وتضاعف له الدعاء بالحرمين الشريفين.

وسافر إليه جماعة منهم من أهل مكة الخطيب محيى الدين العراقى فحصل له منه إنعام جميل وخير جزيل، ورتب له فى دفتر الصُّر مائة دينار ذهبًا، وفرح بمن قدم عليه من الحجازيّين وأنعم على كلّ أحد بحسبه، وكان يرسل الصدقات الرومية فى كلّ سنة[٢].

فلمّا افتتح مصر وجد بها من قضاة مكة قاضى القضاة صلاح الدين محمد ابن أبى السُّعود بن إبراهيم بن ظهيرة، وكان السلطان الغورى حبسه بمصر من غير ذنب بل للطمع فيه، ولمّا خرج بعساكره من مصر إلى مرج دابق أخرج كلّ من فى حبسه من أرباب الجرائم إلا القاضى صلاح الدين فإنه أبقاه فى الحبس فلمّا انكسر وقُتل فى مرج دابق أخرجه السلطان طومان باى من الحبس وأطلقه، فلمّا دخل السلطان سليم إلى مصر جاء إليه القاضى صلاح الدين فأكرمه وعظمه، وخلع عليه وأحسن إليه وجهّزه إلى مكة معزّزًا مكرمًا[٣].

(١) هو السجل الذى دوّن فيه ما يعطى لأهل الحرمين جماعة وأفراد.

(٢) المنح الرحمانية ص٩٦.

(٣) نفس المصدر.

وكان بمصر جماعة من الحجازيّين أحسن إليهم كلهم وأكرمهم، وولى أمانة بندر جُدَّةَ لتاجر اسمه الخواجا قاسم الشروانى، كان مقيمًا بمكة ثم سافر إلى مصر فصادف دخول السلطان سليم إلى مصر فخدمه وتقرّب إلى خاطره الشريف، فأرسله إلى مكة أمينًا فى بندر جُدَّة أميرًا عليها، فوصل إليها وتمكّن من البندر.

وأرسل السلطان سليم من أمرائه إلى مكة الأمير مصلح الدين بك بالصدقات الرومية، وبكسوة الكعبة، وبمحمل شريف رومىّ، فوصل فى صُحبة أمير الحاجّ المصرى المقر العلائى بالمحمل الشريف المصرى على المعتاد، وبرز شريف مكة يومئذ مولانا السيّد بركات لملاقاة المحملَيْن إلى سبيل الجَوْخَى هو وولده سيّدنا ومولانا السيد الشريف جمال الدين محمد أبو نُمَى أطال الله تعالى عمره الشريف، ولبسا الخلع الشريفة السلطانية وسار أمام المحملين المصرى والرومى بأعلامهما وطبولهما، واستمر فى هذا الموكب إلى أن فارق المحملين وأمير الحاج والأمير مصلح الدين من عند باب السلام[1].

وأُدْخل المحملان إلى الحرم الشريف، ووُضِعَا عن يمين مدرسة الأشرف قايتباى ويسارها، ونزل الأمير مصلح الدين فى مدرسة الأشرف قايتباى، ونزل أمير الحاج المصرى فى مجمع البرقية على يمين الخارج من باب الصفا، وهو رباط صاحب بلدة كلبركة من ملوك الدكن، وقد هُدمت الآن مع ما فى ذلك الجانب من البيوت والمدارس اللاصقة بجدر الحرم الشريف توسيعًا لطريق السيل ودفعًا لضرر دخوله إلى المسجد الحرام من ذلك الجانب إذا تراكم السيل[2].

وكان هدمها بموجب الأمر الشريف السلطانى فى سنة أربع وثمانين وتسعمائة وفرقت الصدقة الرومية فى يوم الجمعة لأربع مضين من ذى الحجّة

(١) المنح الرحمانية ص٩٧ ـ ٩٨.

(٢) المنح الرحمانية ص٩٨ ـ ٩٩.

سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فى الحرم الشريف على الفقهاء، وقرر جماعة من المجاورين لكلّ واحد منهم مائة ذهب، منهم مولانا نور الدين حمزة بن القاضى مصطفى القرمانى، ومولانا زين الدين على القرمانى، وقرّر باسم سيّدنا ومولانا الشريف أبى نمىّ أطال الله تعالى عمره الشريف خمسمائة دينار ذهبًا فى أول دفتر الصدقات باقية إلى الآن باسمه الشريف، تُقَبَّض له فى كل عام[١].

وفرقت بعد هذا الذخيرة وهى صدقة كانت تجهّز من خزينة مصر من قبل ملوك الجراكسة، أبقاها السلطان سليم على حالها، وأجراها فى كلّ عام من خزينة مصر، تفرّق على فقراء الحرمين الشريفين، وعلى مشايخ العرب أرباب الدرك، فى طريق الحاج، وهى باقية مستمرّة إلى الآن، وفرقت الصدقات المصرية التى تجمع من أوقاف الحرمين بمصر، وتجهّز إلى الحرمين الشريفين ويقال لها الصرُّ الحكمى[٢]، وهو أيضًا باقٍ إلى الآن، وإن تقهقر وضَعُفَ، وصار يُصْرَف على حكم الربع والخمس لضعف الأوقاف المصرية واستيلاء الأكلة[٣] عليها ودخول الظلمة فيها أحيا الله من أحياها، وأنمى حياة من عمّرها ونماها، وبعد الفراغ من توزيع الصدقات قُرِئت ختمة شريفة قرآنية فى الحطيم الشريف حضرها الأمراء والقضاة والفقهاء والأعيان باسم السلطان سليم، وأُهْدِىَ إلى صحائفه الشريفة ثوابها[٤].

وقرّر الأمير مصلح الدين ثلاثين نفرًا يقرأُ كلٌّ واحد منهم جُزْءًا شريفًا قرآنيًا فى كل يوم فتكمل بهم ختمة كاملة فى كل يوم، يُهْدَى ثواب ذلك إلى السلطان سليم خان، وقرّر لهم مفرِّقًا للأجزاء وداعيًا وحافظًا للأجزاء،

(١) المصدر السابق ص ١٠٠.

(٢) الصّر الحكمى: وهو المال المتجمع من إيراد الأوقاف الحكمية، أى ما حُبس من الرباع على الحرمين وعلى الصدقات وعلى الأسرى وغيرها.

(٣) جمع آكل وكانت تعنى فى ذلك العصر: المرتشى. ويقصد بالأكلة هنا الذين يأخذون أموال تلك الأوقاف بالباطل.

(٤) المنح الرحمانية ١٠٠ ـ ١٠١ بالنص نقلاً عن المؤلف.

وجعل لكلّ واحد منهم اثنى عشر ديناراً ذهبًا فى دفتر الصدقات الرومية، تَصِلُ إليهم فى كل عام، ثم جمع له طائفة من الفقراء، أعطى لكلّ نفر ثلاثة دنانير ذهبًا سمّاها المتفرّقة، وكتب أساميهم فى الدفتر، ثم كتب بيوت فقهاء مكة المشرفة وكتب أسامى من فى البيوت وعيّن لكلّ نفر منهم ثلاثة دنانير ذهبًا، وألْحَق ذلك فى دفتر الرومية وسمّاها البيوت، وهى باقية إلى الآن، ثم كثر عليه الفقراء فجمعهم فى حوش كبير وأعطى لكلّ واحد ديناريْن ذهبًا وسمّاهم العامة، وكتب أساميهم وألْحَقَهم بالدفتر.

وهذا الترتيب كلُّه باقٍ إلى الآن وثوابُه لمن أسّس فعل هذه الخيرات جارٍ فى صحائف حسناته إلى يوم القيامة.

ثم خطب الخطيب شرف الدين يحيى النويرى خطبة التروية فى سابع ذى الحجّة، وفى ظهر اليوم الثامن توجّه الناس إلى عرفات وتوجه الأمير مصلح الدين بالمحمل الرومى وتوجّه المقر العلائى بالمحمل المصرى إلى عرفات وصلّوا فى اليوم التاسع صلاة الظهر والعصر جَمْعًا بينهما بعد الزوال بعد أن خطب الخطيب فى مسجد نمرة، ثم شرعوا فى الوقوف فى ذيل جبل الرحمة، وخطب قاضى القضاة صلاح الدين بن ظهيرة أمام الموقف الشريف خطبة عرفة ووقف بين يديه الأمير مصلح الدين بالمحمل الرومى وأمير الحاجّ المصرى بالمحمل المصرى ولم يصلْ فى ذلك العام المحمل الشامى، ودعا الخطيب للسلطان سليم خان، وكذلك سائر الحُجَّاج، وأفاض الإمام وأفاض الناس معه وكانت الوقفة الشريفة يوم الأربعاء المبارك، وباتوا بالمزدلفة، ثم أفاضوا بعد فجر يوم النحر إلى مِنًى، ونزل شيخ الكعبة من مِنًى فى يوم النحر ونزل معه الأمير مصلح الدين وكسا البيت الشريف باسم السلطان سليم خان، وأتمّ الناس حجّهم وتوجّه أمير الحاج المصرى بالمحمل الشريف وسافر، وتأخّر عنه الأمير مصلح الدين لإتمام بعض الأوامر السلطانية وإنفاذها ولإيصال الخير والإحسان إلى الفقراء واستجلاب الدعاء من الصلحاء بنصرة السلطان سليم خان ودوام سلطنته.

وفى ليلة الجمعة فى أواخر شهر ذى الحجة الحرام طلب بعضَ الأولياء والصالحين والعلماء العاملين منهم مولانا الشيخ عبد الكريم بن الشيخ ياسين الحضرمى والشيخ عبد الله بن أحمد باكثير الحضرمى وشيخنا الشيخ محمد ابن عبد الرحمن الحَطّاب المالكى وولده شيخنا الشيخ محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحَطّاب المالكى والشيخ أيُّوب الأَزْهَرى وجماعة من الصلحاء وأَحْضر لهم دوابًا يركبونها إلى التنعيم عند مساجد السيّدة عائشة رضى الله عنها، وركب معهم وأشار عليهم أن يعتمروا عن والدة السلطان سليم خان، فأَحْرَمَ كلُّ واحد منهم بالعُمرة عن المرحومة ولَبَّى عنها وعادوا إلى الكعبة الشريفة فطافوا ثم سعوا وحلقوا وأهدوا ثواب تلك العمرة إلى صحائفها، ثم أحسن إليهم ورتب لهم الصَّرَّ فى دفتر الصدقات فدعوا له وللمرحومة ولولدها السلطان الأعظم سليم خان رحمه الله.

ثم وصل من بندر السُّوَيْس إلى بندر جُدَّة بحرًا سفائن مسمارية فيها حبوب الصدقات السلطانية لأهل الحرمين الشريفين، جهّزها ملك الأمراء خير بك نائب السلطنة الشريفة بمصر بأمر السلطان سليم، وهى سبعة آلاف أردب حبّ منها ألفا أردب لأهل المدينة الشريفة، وخمسة آلاف أردب لأهل مكة.

ووصل الأمر الشريف السلطانى أن يوزع ذلك الأمير مصلح الدين، فجلس فى الحرم الشريف وطلب قاضى القضاة شيخ الإسلام مولانا القاضى صلاح الدين بن ظهيرة الشافعى والقضاة الثلاثة الحنفى والمالكى والحنبلى ونائب جُدَّة الأمير قاسم الشروانى وبقية الفقهاء والأعيان، وقرأ عليهم المرسوم السلطانى واستشارهم فى توزيع ذلك، فذكروا أنه لا بُدَّ من عرض ذلك على شريف مكة سيّدنا ومولانا الشريف بركات وأخذ رأيه فى ذلك، فأرسلوا إليه ساعيًا وكتبوا إليه صورة الأمر الشريف السلطانى واستدعوا رأيه العالى فى ذلك فكتب إليهم الجواب بالمبادرة إلى امتثال الأمر الشريف وتوزيع ما وصل من حبّ الصدقة الشريفة على المستحقّين بحسب اتّفاق

الآراء من أعيان أهل المجلس.

فاجتمعوا ثانيًا بعد وصول الجواب واتّفق رأيهم على بيع بعض ذلك الحبّ ليُصْرَف فى نقله من جُدَّة إلى مكة، وبأن يكتب أسامى الناس على العموم ويُصْرَف إلى كل واحد ما يخصُّه من الحبّ وما يخصُّه من ثمن ما باعوه بعد استيفاء المَصَارف، وأمر شيخ الإسلام الصلاحى أن يباشر كتابة دفتر ذلك ورقم أسامى الناس الشيخ رضى الدين الحناوى الشاهد العدل كبير الشهود العدول فى باب السلام المكىّ، فكتب بيوت كل محلّة وكتب ما فى كل بيت من أعداد الأنفار رجالاً ونساء وأطفالاً وخُدَّامًا ما عدا التجار والسوقة والعسكر فكانوا اثنى عشر ألف نفر، فخصّ كل نفر ست رباعى بكيل الربع الكبير[1] الذى هو أربع كيل من أربعة وعشرين قدحًا بالكيل المصرى المستمرّ الآن، وأن يدفع مع ذلك لكلّ نفر دينار ذهب، فوُزِّعَ ذلك جميعه على هذا الوجه.

ثم جعل لكلّ واحد من القضاة الأربعة ثلاثة أرادب، فزيد فى أسماء بعض البيوت بحسب الاعتناء بشأن كبير البيت، وهذا أول صدقات الحبّ الشريف السلطانى، واستمر إلى الآن وزيد على ما كان بحيث صار فقهاء مكة والمجاورون يتعيشون بوصول هذا الحبّ إليهم إما فى جميع السنة أو أكثرها فلو فقدوا ذلك والعياذ بالله تعالى هلكوا وكذلك يرتفقون بالصدقات الرومية وغيرها مما كان سبب الإنعام بها عليهم سلاطين آل عثمان نصرهم الله تعالى وخلّد ملكهم السعيد، وطوّق بقلائد إحسانهم العتيد، أعناق خُدَّام الدعاء لهم من الأحرار والعبيد.

أقامت فى الرقاب لهم أيادى هى الأطواق والناس الحمامُ

فيجب على كافّة المسلمين عمومًا، وعلى أهل الحرمين الشريفين خصوصًا، الدعاء بدوام سلطنة آل عثمان، خلّد الله سلطنتهم مَدَى الزمان،

(١) فى ل: «الكثير» والمثبت رواية م.

فإن دولتهم الشريفة هى عماد الإسلام، وإحسانهم متواصل إلى كافة الأنام، سيّما جيران بلد الله الحرام، وجيران نبيّه الأطهر عليه أفضل الصلاة والسلام، فإنهم فازوا بالإنعامات الوافرة، فى أيام هذه الدولة الزاهرة، وحازوا من الصدقات المتكاثرة، فى نوبة هذه السلطنة القاهرة، ما لم يتصوروه من الدول الماضية الغابرة، فالله يُديم علينا سلطانهم، كما دام علينا وعلى عامّة الأنام برّهم وإحسانهم.

وممّا جدّده الأمير مصلح الدين المذكور: بناء مقام الحنفية فإنه كان مسقفًا على أربعة أعمدة فى صدره محراب عمل سنة إحدى وثمانمائة، فأراد أن يوسّعه ويجعله قبّة فأمر بعقد مجلس حضر فيه القضاة الأربعة والأئمة والعلماء والأعيان، وقال لهم: إن الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان، روّح الله روحه الشريفة بروايح الروح والريحان، والرحمة والرأفة والرضوان، جديرٌ بأن يكون له فى هذا المسجد الحرام مقام، يجتمع فيه أهل مذهبه ومُقَلِّدُوه يكون أَوْسَعَ من هذا المقام، فذكر بعض العلماء أنه لا شكّ فى عظم كل واحد من الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين، غير أن تعدُّد المقامات فى مسجد واحد لاستقلال أهل كل مذهب بإمام، ما أجازه كثير من العلماء، وأن تعدُّد هذه المقامات فى وقت حدوثه أنكره العلماء غاية الإنكار فى ذلك العهد ولهم فى ذلك العصر رسالات متعدّدة باقية بأيدى الناس إلى الآن، وأن علماء مصر أفتوا بعَدَم جواز ذلك وخَطَّئوا من قال بجوازه. ثم انفصل المجلس على غير اتّفاق.

ثم ذكر القاضى بديع الزمان ابن الضياء الحنفى أن جدَّه القاضى أبا البقاء ابن الضياء أفتى بجواز ذلك، فشرع الأمير مصلح الدين فى إتمام ما قصده وهدم تلك السقيفة ووسّع المكان وعمل قبّة عالية من الحجر الأصفر والأحمر الشميسى، وأصرف على ذلك ذهبًا كثيرًا واستمرّ مقامًا يصلّى فيه الحنفية بالحنفيّين إلى أن غيّره الأمير خوشكلدى أمير بندر جُدَّة، وهدم القبة وبنى المقام مربعًا ذا طبقتَيْن جعل الطبقة العليا للمكبّرين لتصل أصواتهم إلى سائر

المسجد الحرام لارتفاع مكانهم وهو باقٍ إلى الآن على هذا الحكم[1].

ثم بعد فراغ الأمير مصلح الدين من بناء القبّة توجّه إلى المدينة بما معه من الصدقات الرومية وتصدّق بها على جيران النبيِّ ﷺ، وكتب دفترًا بأساميهم وأحسن إليهم إحسانًا وافرًا، واستجلب الدعاء منهم للمرحوم السلطان سليم خان، ثم توجّه إلى الينبع وركب البحر إلى مصر ثم إلى الروم، وأبقى ذكرًا جميلاً، وحصل ثوابًا جزيلاً، رحمه الله تعالى.

* * *

(١) إعلام العلماء ص١٠٦.